



استهلت ريم علاف - باحثة بالمعهد الملكي للشؤون الدولية "تشاتهام هاوس" - تعليقها في ديلي تلغراف بأن النظام السوري أصبح في وضع حرج الآن بعدما بدأ الأصدقاء ينفضون من حوله، وبعدهما اكتشف الشعب أن له صوتاً يسمع.

فحتى أسابيع قليلة مضت كانت الحكمة التقليدية في الشرق الأوسط هي أن الربيع العربي واجه حرارة خانقة لصيف مبكر غير متوقع. وكان الرحيل السريع لأوانه للحكام المستبدین عن عروشهم الأبدية نوعاً من التوجه الذي كان بحاجة إلى التوقف كما كانت فكرة المدنيين الذين يعتقدون أن بإمكانهم إملاء مصيرهم.

وقالت الكاتبة: "إن القذافي المزعج سيتم إزاحته في النهاية لكن الثورات الأخرى قد يتم وقفها قبل أن تكتسب قوة جاذبة، سواء بالإقناع أو التثبيط أو القمع. وأمال ملايين اليمنيين قد تم تجاهلها والاحتجاجات السلمية في البحرين سُحقت بوحشية - بمباركة قادة المنطقة وما وراءها -، وعدد آخر من المظاهرات تمت السيطرة عليها بسرعة".

وأشارت إلى ما يقال: "إنه لم يكن هناك مجرد حاجة للاحتجاج في سوريا لأن بشار الأسد كان قد قدم بالفعل إصلاحات اقتصادية لعلاج المظالم التي أشعلت الثورتين في تونس ومصر. وكان بلده مستقرًا، كما قال لـ*لوروول ستريت جورنال*; لأن سياسات حكومته كانت مرتبطة إلى حد كبير بنبض الشعب".

لكن هناك مشكلة واحدة وهي أن هذه الإصلاحات لم تكن كافية لآباء الخمسة عشر تلميذاً في مدينة درعا الذين تجرؤوا بالاعتراض على النظام السوري لسجن وتعذيب أبنائهم. وكانت النتيجة انتفاضة أثبتت استحالة قمعها، رغم تلقي الأسد تأييداً معلناً من معظم القادة العرب، بما في ذلك السعودية والبحرين اللتان ترددان الجميل، وصممت القوى الدولية التي كانت تأمل أن تتحل المشكلة بسرعة من تلقاء نفسها.

ولم يشعر المراقبون المخضرمون بالارتباك فقط، لكن الأصدقاء والأعداء يجدون أنفسهم في موقف مختلف تماماً. وبعد عقود من انصياع الشعب السوري جزئياً بسبب خوفهم من النظام بعد المذبحة المروعة في مدينة حماة عام 1982 م، وجزئياً لأنهم كانوا فعلاً يؤيدون مواقف إقليمية، أصبحوا فجأة شجاعاً وغير مقهورين ويستحيل وقفهم.

وقالت الكاتبة: "إنه بحلول الغزو الإسرائيلي للبنان عام 2006 لم يعد هناك شك في أن تغيير النظام في سوريا وجد من يؤيده علناً؛ مثل الولايات المتحدة وال سعودية وفرنسا - على سبيل المثال لا الحصر-، وأعتقد كثيرون أن العملية ستسفر فقط، وأنها ستكون مسألة بسيطة أن يتم تنصيب الفريق الاحتياطي لعبد الحليم خدام، نائب الرئيس السوري السابق وأكبر شخصية منشقة عن النظام حتى الآن".

لكن عندما لم تستطع إسرائيل هزيمة حزب الله عسكرياً قدمت بذلك نصراً سياسياً ضخماً لسوريا، الداعم الرئيسي للحركة، وعززت موقف النظام. ومن ثم تحولت دول كثيرة إلى إستراتيجية المشاركة، وأخذت فرنسا بزمام المبادرة بدعم من لاعبين إقليميين مؤثرين على نحو متزايد مثل تركيا وقطر، التي كانت تعمل على تحسين علاقاتها بإيران. واحتفى المحور السعودي السوري المصري التقليدي وحل محله تحالف جديد ليوازن السعودية.

ومع ذلك، فمن المفارقات أن الدول التي خفت عزلة سوريا بعد الحريري هي التي حظيت بعادتها. ومرة تلو الأخرى حول النظام السوري قطر وتركيا وفرنسا من حلفاء أقوياء إلى نقاد أقوياء. وفي حين أن حكومة الأسد البعثية مستمرة في ادعائها بأنها الضامن الوحيد لدولة علمانية في وجه الإسلاميين ما زال حلفاؤها الوحيدين هم الأنظمة الدينية؛ مثل: إيران، أو حزب الله.

ومع عدم وجود نظام على قائمة الانتظار لطمأن القوى الأجنبية؛ فإن الربيع السوري هو الذي يحرك الأوراق بنفسه، وقد بدأ النظام يدرك فجأة أنه لا يستطيع البقاء كما فعل في الثمانينيات ومعه إيران فقط كصديق قوي. ولا يستطيع أيضاً الاعتماد على التأييد الشعبي حتى ولو انتهت الثورة غداً. ولهذا السبب، بعد أسابيع من الاتهامات والشتائم الموجهة لأولئك الذين تجرؤوا على انتقادها تحاول سوريا الآن مدح قطر - بالتعبير عن إعجابها بقناة الجزيرة-، وتركيا - بتعيينها المفاجئ لنائب رئيس وزرائها سفيراً لها في أنقرة- علىأمل "عفا الله عما سلف".

وختمت الكاتبة: بأنه حتى مع إعادة تنظيم آخر لحلفائه فإن بقاء النظام السوري لم يعد يعتمد فقط على النعم الجليلة من جيرانه. ولا يمكنه الاعتماد على ملاحقاته الوحشية في كثير من المدن السورية تحت ستار مكافحة المتسللين المسلمين. فالشعب السوري يريد أن يقرر كيفية إدارة بلده. والوعود الغامضة بالإصلاح في مقابل تجديد صمته لم يعد خياراً بعد ذلك، وإذا لم ينه النظام العنف فقد ينهي العنف النظام.